

الباب الخامس

الدعوة إلى الله
وتكليف الأمة
منهاج أولي العزم من الرسل

obeikandi.com

الدعوة إلى الله

(١) تمهيد في الدعوة إلى الله

إن الله أنزل الكتب وشرع الشرائع، وبعث الأنبياء واختار الدعوة إليه لإصلاح الثقلين محكمة من عنده، صالحة للأولين والآخرين، فهي الأمر المجتبي لخير الخلق بالهدى، وإرشاد الخلق بالتقى، لطيب عيش في العلى، عن ظلم قلب والعمى، قول وفعل ودعاء، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [سورة يونس: آية ٢٥].

وقال عن نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: آية ٤٥، ٤٦].

وزكى كلام دعائه بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿٣٣﴾ [سورة فصلت: آية ٣٣].

ولعظم شأنها وقداستها اختار لها صفوة خلقه، نظر إلى قلوبهم فوجدوها أطهر القلوب، فوهبهم أقدس الأعمال وهو دعوة المخلوق لمعرفة الخالق جل وعلا، علماً بأنه سبحانه قادر على أن يهدي الثقلين بالأسباب وبدون أسباب.. فقال جل وعلا: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [سورة يونس: آية ٩٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ [سورة السجدة: آية ١٣] فمن سنته في الهداية إرسال الأنبياء تترأ، كل نبي يجتهد في الدعوة إلى الله على قومه، حتى يتوفاه الله تعالى ثم يخلفه من بعده نبي آخر بحمل

رسالة الدعوة إلى القوم، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتْرَا كُلٌّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة المؤمنون: ٤٢، ٤٣، ٤٤]. وهذه الدعوة التي اختارها الله تعالى لدمغ الباطل وإحقاق الحق، جعل أسلوبها محكماً بقبضته وإرادته جل وعلا، فهي تحمل الهداية والنصرة في آن واحد، قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [سورة الأنبياء: آية ١٨].

(٢) الأسلوب القرآني يختلف باختلاف ظروف الدعوة

لقد نال تفصيل الدعوة إلى الله ﷻ في كتاب الله الكريم الحظ الأوفر من النصوص المحكمة، والآيات البينة، والأساليب المختلفة للأنبياء في دعوتهم إلى الله، فجاء بشرح مفصل وبسط شامل لتلك الأساليب، إلهاماً وتعليماً للأمة كي تأخذ بتلك الأساليب القرآنية، في قيامها بالدعوة إلى الله بما يستدعيه حال المدعو وظروفه، فكل نبي أرسله الله لقومه خاصة ويعتمد بأسلوبه في الدعوة إلى الله ﷻ على الوحي الرباني في إيجاد المنهاج الدعوي الذي يتناسب مع قومه، وجاء أسلوب القرآن بشرح لأساليب الأنبياء مع أقوامهم من صبر وتحمل وتنقل وترحال من مكان إلى مكان، وهجر للأهل والأوطان وقتل وتجريح وإنكار للمعجزات وتكذيب بالمغيبات.

قال أبو الحسن الندوي رحمه الله: إن من إعجاز القرآن أن موضوع الدعوة وكلها الله إلى العقل السليم والذوق المستقيم والعقيدة الراسخة والفكرة المتغلغلة في الأحشاء، ثم أحاطها بسياج واحد وهو: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّثْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: آية ١٢٥].

فالإعجاز الكامل في قوله تعالى (ادع) وهي لا تختص بالخطابة

ولا بالوعظ والنصيحة وإنما «ادع» والدعوة شاملة أساليب كاملة موافقة للكتاب والسنة وفي قوله «إلى سبيل ربك» كلمة أوسع أفقاً، وإن كلمة «الحكمة» عربية لا أعتقد ترجمتها أو نقلها إلى لغة أخرى، وكذلك «الموعظة الحسنة» كلمة مطلقة، حيث جاء القرآن بحل المشكلة «فأطلق، وقيد، وأوجز، وأعجز» فتأمل كيف جاء القرآن بأسلوب إثارة الحنان الأبوي وذلك في قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام لأبيه: «يا أبت» حيث جاء بأسلوب التواضع وخفض الجناح لهذا المقام الأبوي. انتهى كلامه^(١).

وتأمل قصة يوسف عليه السلام وما تحمل من أصول الدعوة إلى الله، وهي تعرض قصة الفتى الذي يتعرض للكثير من المحن والمصاعب ككيد الأخوة، وإلقائه في الحب، ومحاولة المرأة إغواءه وفتنته، ثم دخوله السجن بسبب موقفه النزيه، ومن ثم خروجه من السجن وتقريب الملك له وجعله على خزائن الأرض، ثم لقائه بإخوانه وعفوه عنهم واجتماع شملهم مرة أخرى، وما في ذلك من الدروس والعبر النافعة، وأخبر الله ﷻ عن قيام يوسف عليه السلام بالدعوة إلى توحيد الله تعالى ونبذ الشرك والانخلاع من الأوثان، والتوجه إلى عبادة الله تعالى وحده وسلوك طريق الهدى والرشاد، وتلطفه ﷻ بمن يدعوهم، وحرضه على هدايتهم حتى وهو في أحلك الظروف وأصعبها من السجن ورميه بالتهمة الباطلة، ولكنه قدم أمر الدعوة على حظوظ النفس ورغباتها ليقدم للداعي إلى الله نموذجاً رائعاً في الرحمة على الخلق والصبر على البلاء والمحن، يقول تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ

(١) روائع من أدب الدعوة لأبي الحسن الندوي، ص ١٣ (بتصرف يسير).

مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٨﴾
يَصْدَحِي السِّجْنَ ءَازِبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٢٩﴾ مَا
تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ
سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿سورة يوسف: آية ٣٧ - ٤٠﴾.

لقد عرضت قصة يوسف عليه السلام أصولاً للدعوة إلى الله في موقف
يوسف عليه السلام مع صاحبي السجن، في حكمة الداعي في حسن استماعه
لمن يدعوهم ومعرفة ما عندهم، وذلك ناتج عن ثقتهم فيه وفي مسلكه
واتصافه بصفات المحسنين وتلطفه بهم وترغيبه في الخير وبما ينفعهم
ويخفف عنهم عناء السجن، وذلك ببشارته لهم بالطعام والشراب من
قبل أن يصل إليهم، وبداءته عليه السلام بالأهم فالمهم من أمور الدعوة
وأسسها، فكان تقريره للوحدانية الإلهية وعدم الإشراك بالله تعالى في
عبادته وموازنته بين الأمور بمعيار الحكمة والعقل الراجح، وهو ما
ينبغي أن يتبناه إليه كل داعية إلى الله، فمثلاً لم يبدأ يوسف عليه السلام بتلبية
طلبهم وتفسير أحلامهم وهو ما يريدونه ويرغبونه، بل تلطف بهم
ومهد لهم إلى ما هو أهم من أحلامهم ومناهم، وهو توحيد الله
وعبادته، وضرب لهم المثل بنفسه من تركه لملة قوم لا يؤمنون بالله،
واتباعه لملة التوحيد واستخدامه عليه السلام لأسلوب التساؤل، وهذا
الأسلوب هام جداً في إثارة العقل وحفزه على التفكير وعقد المقارنة
واستخلاص النتائج، ويظهر هذا في قوله تعالى: ﴿يَصْدَحِي السِّجْنَ
ءَازِبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة يوسف: آية ٣٩]
وأخيراً بعدما دعاهم إلى الله وأبان لهم وجه الحق والصواب،
استجاب لطلبهم وحقق رغبتهم وفسر لهم أحلامهم، فهذه بعض من
أساليب القرآن في تعليم الدعاة إلى الله من هذه الأمة، والأساليب
القرآنية المتنوعة جاءت معظمها في جهد الرسول ﷺ لأنه مسك

الختم للنبيين وبعثه عالمية للناس كافة^(١).

(٣) الأسلوب القرآني في تحميل الأمة الإسلامية مسؤولية الدعوة العالمية:

لقد عَظَّشَ الله البشرية بإيقاف بعث الأنبياء منذ بعثة سيدنا عيسى عليه السلام إلى بعثة سيدنا محمد ﷺ قرابة خمسمائة وستين سنة، ذلك الحكم الذي جعل الفصل في عالمية الدعوة المباركة وتحميل الأمة الإسلامية مسؤولية الدعوة العالمية، فإن أمرها بعيد وساحتها واسعة جداً، ولها مساحة زمانية ومساحة مكانية وكلتاها واسعتان، أما الزمانية فهي تمتد من مصدر الدعوة وهو نبينا محمد ﷺ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، كذلك لها مساحة مكانية واسعة في المشرق والمغرب والشمال والجنوب، ولاتساع دائرة الدعوة من «يا قوم» إلى «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا» [سورة الأعراف: آية ١٥٨] ولاتساع رقعة الأرض واختلاف أمزجة البشر، اختلفت الأساليب الدعوية وتنوعت مع ظروف الحياة التي يعيش عليها البشر، فجاء القرآن ببسط شامل وشرح مفصل لأساليب جميع الأنبياء مع أقوامهم، وإظهاراً لقداسة الدعوة والقائمين بها، وتثبيتاً لقلوب الدعاة السائرين على الدرب القرآني والنهج الرباني أمر الله ﷻ نبيه ﷺ بالشورى تعليمياً للصحابة والأمة التشاور حول المسؤولية العالمية للدعوة بعد وفاة نبيهم ﷺ.

قال تعالى ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [سورة آل عمران: آية ١٥٩] ذلك لإحاطتهم بسياج الإيمان ونبذ الخلاف والاعتصام حول الكتاب والسنة، وأثنى الله على أقوام ومخلوقات لأنهم قاموا بالدعوة والتضحية لبني جنسهم، وخلد ذكرهم على معبر من الزمن علماً بأنهم

(١) الشرح والتعليق لقصة يوسف عليه السلام من كتاب وسائل الدعوة د. عبد الرحيم المغزوي ص ٤٨ (بتصرف).

لم يكلفوا بالدعوة إلا تطوعاً.

فشرح القرآن عن قصة مؤمن فرعون بقوله: ﴿وَيَقُولُ مَا لِيَ
أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَىٰ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ۖ﴾ [سورة غافر: آية ٤١].

وذكر الجن بقوله: ﴿يَقُولُونَ أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ
لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُم مِّنْ عَذَابِ آلِيمٍ ۖ﴾ [سورة الاحقاف: آية ٣١].

وذكر قصة النملة بأنها أمرت وحذرت واعتذرت فقالت:
﴿يَتَأْتِيهَا النَّملُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ﴾ [سورة النمل: آية ١٨].

وذكر الهدهد بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّملُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ
سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [سورة النمل: آية ٢٢] ومن خلال استعراض
الآيات تبين أن القرآن يلقي بظلاله على تلك المخلوقات التي قامت
بالدعوة إلى الله لبني جنسهم وذلك لإقامة الحجة على الأمة الإسلامية
في عدم قيامها على الدعوة العالمية.

انقسام الدعوة إلى قسمين:

(١) دعوة الفقهاء والأحكام الشرعية:

١ - تعريفها.

هي العلم بالأحكام الشرعية العملية المستنبطة من أدلتها
التفصيلية.

٢ - حكمها الشرعي.

فرض كفاية على الأمة إن قام بها البعض سقط عن الآخرين^(١).

(١) مدخل في الفقه الإسلامي، محمود طنطاوي، ص ١٤.

دليلها من القرآن في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [سورة التوبة: آية ١٢٢].

٣ - دليلها من السنة:

إن رسول الله ﷺ بعث معاذاً إلى اليمن فقال: «إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم»^(١) قلت: فهذا دليل على أن رسول الله ﷺ انتدب لهذا الأمر العظيم رجلاً واحداً رأى فيه مقومات الدعوة إلى الله بالفقهيات والمسائل والقدرة على بيان الأحكام الشرعية، وأنه لم يكلف جماعة بذلك.

٤ - التوزيع في الأمة من هذه الطائفة التي تعتبر بمثابة السراج المنير والدواء للعليل، وذلك في كتابة المصنفات الإسلامية وإنشاء مجامع البحوث والموسوعات الفقهية، والقيام بتولي النظم والقضاء والفتوى وشرح أحكام العبادات والمعاملات والمواريث وغيرها.

٥ - دعوة التبليغ والنصح للمسلمين.

(١) إنه بسبب ختم النبوة وانقطاع الرسالة اجتبى الله جميع طبقات الأمة رجالاً ونساء للقيام على مسؤولية الدين والنصح لجميع المسلمين في العالم قاطبة دون استثناء كل بحسبه.

● السبب في انقسام الدعوة على قسمين: فقهيات - ونصح للمسلمين.

(١) الحديث متفق عليه.

إنه في بداية الدعوة التي قام بها رسول الله ﷺ في مكة المكرمة لم يتنزل شيء من الأحكام، فكان الوحي يتنزل بآيات التوحيد والصبر والتحمل لتثبيت قلوب الصحابة من قصص الأمم السابقة، فكان كل من الصحابة يدعو إلى الله ﷻ بالكلام الذي يسمعه من رسول ﷺ، وهذا القسم هو دعوة التبليغ والنصح للمسلمين، أما في المدينة المنورة وبعد نزول الأحكام الشرعية والفرائض انتدب لهذا الأمر العظيم خواص الأمة وهم البعض الذين تفرغوا لدراسة الفقه والمسائل كعماذ بن جبل وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم أجمعين.

٢ - الدليل من القرآن على دعوة التبليغ والنصح للمسلمين في قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [سورة التوبة: آية ٧١] فبينت الآية أن كل فرد من أفراد المجتمع رجالاً ونساءً اتصف بصفة الإيمان وجب عليه القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصح للمسلمين.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة يوسف: آية ١٠٨] ذكر ابن كثير في تفسيره: إن الله أمر رسوله أن يخبر الناس أن هذه سبيله أي طريقه ومسلكه وسنته وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان هو وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعي إليه على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي وينزه الله عن كل شريك أو نظير أو عدل أو نديد أو والد أو ولد أو صاحبة أو وزير تبارك وتقدس وتنزه وتعالى عن ذلك كله علواً كبيراً^(١).

فتبين من تفسير ابن كثير أن كل من اتبع النبي ﷺ من هذه الأمة

(١) تفسير ابن كثير، ج ٢، سورة يوسف: آية ١٨٠.

لم يستثنى من أحد في القيام بالدعوة إلى الله وأنه يدعو على يقين ممن يدعو إليه وهو الله تبارك وتعالى.

ويتضح ذلك في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: آية ١١٠].

قال عمر رضي الله عنه: «من أراد منكم أن يكون من تلكم الآية فليؤدي شرط الله فيها وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» وفي شرح الآية الكريمة أنها عامة لكل فرد من أفراد الأمة كل فرد بحسبه وإنما فضلت هذه الأمة بنبيها ﷺ، بعثه الله بشرع عظيم كامل لم يعطه نبياً ولا رسولاً من الرسل، فالعمل على منهاجيته يقوم مقام العمل الكثير من أعمالهم^(١).

وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: «بايعت رسول الله على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم»^(٢) فالمبايعة كانت على النصح لجميع المسلمين في المنشط والمكره، وعن تميم بن أوس الداري قال: قال رسول الله ﷺ: «الدين النصيحة»، قلنا لمن يا رسول الله، قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»^(٣).

وفي شرح الحديث «الدين النصيحة» أي عمود الدين وقوامه، النصح لله: الإيمان به ونفي الشرك عنه ووصفه بصفة الكمال وتنزيهه عن النقائص، والنصح لكتابه: الإيمان بأنه كتاب الله المنزل على رسوله وتعظيمه وتلاوته حق تلاوته، والنصح لرسوله: تصديقه والإيمان بطاعته في أوامره ونواهيه والنصح لأئمة المسلمين في معاونتهم على الحق، والنصح لعامة المسلمين بإرشادهم لمصالحهم

(١) شرح رياض الصالحين، مطبعة النهضة، مكة المكرمة، باب الأمر بالمعروف، ص ١٢٣.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

في دنياهم وأخراهم^(١).

٣ - تكليف الأمة بالدعوة على منهاج أولي العزم من الرسل

أولاً: تمهيد وشرح لدعوة أولي العزم من الرسل من سورة الشورى:

قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مِرْيٌ ﴿١٤﴾ فَلِذَلِكَ قَادَعُ وَأَسْتَقِمَ كَمَا أُمِرْتُ وَلَا تُلْغِ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلَكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [سورة الشورى: آية ١٣، ١٤، ١٥].

تعريف الشريعة:

أ. المعنى اللغوي لتعريف الشريعة^(٢).

- هي مورد الماء الجاري الذي يقصد للشرب.
- هي الطريقة المستقيمة المحكمة لا ينحرف نظامها ولا تلتوي عن مقصدها.

ب. المعنى الاصطلاحي لتعريف الشريعة:

هي الأحكام التي سنّها الله لعباده على رسول من الرسل.

(١) رياض الصالحين، باب النصيحة، ص ١٢٢.

(٢) التعريف اللغوي والاصطلاحي، مدخل الفقه الإسلامي لمحمود الطنطاوي، ص ١٣.

قلت: والجمع بين التعريفين أمر لا مشاحة فيه لبيان المقصد
فألفاظهما ظاهرة جلية.

وخلاصة التعريفين أن الله جل وعلا شرع لإقامة الدين في حياة
البشرية أحكاماً سنّها لهم بمنهاج شامل كامل على طريق أولي العزم
من الرسل، والسبب في ذلك أن هذه الأمة أظهرها الله تعالى على
سائر الأمم وهي آخر أمة أخرجت للناس، لأنها تحمل تكاليف
الشرعية فتنتقل بها إلى العالم أجمع، ثم إن هذه الشريعة التي عرّفت
بمنبع الماء الجاري هو الأصل الذي يتفجر ويخرج منه الماء طاهراً
في نفسه مطهراً لغيره بسبب حركته وجريانه فينتفع به خلق كثيرون.

وأعني بذلك التوضيح الذي يدور حول حركة الأمة وتنقلها
بالدعوة إلى الله في أربعة محاور:

المسجد - البيت - القرى المجاورة - العالم قاطبة.

فهي تشبه الماء الجاري المتحرك بين السهول والجبال والوديان
والبلدان فينتفع به الإنسان والطير والحيوان والزرع والأشجار، وأنها
إذا تبوتقت حول نفسها تكون كالماء الراكد الذي لا يصلح للشرب
أحياناً، أي إذا تركت المسؤولية العالمية للدعوة إلى الله، وعكفت
على دنياها فإن الباطل يستشري فيها ويحل الهوان عليها.

ويتبين من التعريفين كذلك أن الشريعة تلك الأحكام التي سنّها
الله ﷻ للرسول بطريقة مستقيمة لا ينحرف نظامها ولا تلتوي عن
مقصدها، وهي شريعة التوحيد الخالص لإقامته في البشرية جميعاً
انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: آية ١١٠].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ

بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ [سورة آل عمران: آية ١٠٤].

ذكر ابن كثير: في تفسيره لهذه الآية: أن كل فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن وإن كان ذلك واجباً على كل فرد من الأمة بحسبه^(١) وفي قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَانُ الْمَيْتِ﴾ [سورة النور: آية ٥٤].

ذكر ابن كثير في قوله تعالى: «فإن تولوا» أي إن تتولوا عنه وتركوا ما جاء به ببلاغ الرسالة وأداء الأمانة وبقبول ذلك والقيام بمقتضاه لأنه يدعو إلى صراط مستقيم^(٢).

وفي قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ﴾ [سورة الشورى: آية ١٣] ذكر البيضاوي: إن الضمير في قوله تعالى «لكم» يعود على هذه الأمة، أي شرع لكم من الدين هو دين نوح ومحمد ومن بينهما من أرباب الشرائع وهو الأصل المشترك فيما بينهم. انتهى كلامه^(٣).

وذكر ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: تضمنت ذكر الخمسة كما اشتملت آية الأحزاب عليهم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [سورة الأحزاب: آية ٧] وذلك لقيامهم بالقدر المشترك بينهم وهو عبادة الله وحده^(٤) انتهى كلامه.

(١) تفسير ابن كثير، ج ١ سورة آل عمران، آية ١٠٤.

(٢) تفسير ابن كثير، ج ٣، سورة النور، آية ٤٥.

(٣) تفسير البيضاوي، ج ٤، سورة الشورى، آية ١٣.

(٤) تفسير ابن كثير، ج ٣، سورة الشورى، آية ١٣.

قلت: والجمع بين التفسيرين في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ﴾ أي لهذه الأمة «من الدين» هو عبادة الله وحده لا شريك له والدعوة إليه «من الدين» وهي التبعية، أي ذلك البعض هو تشريع الله الذي خص به الأمة الإسلامية بإقامة التوحيد في البشرية جميعاً على منهاج أولي العزم من الرسل، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿مَا وَصَّيَ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ [سورة الشورى: آية ١٣].

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقتها ومغاربها وإن ملك أمتي سيبلي ما زوى لي منها»^(١) وهذا دليل على تحقيق النصر ونزول التأييدات الغيبية، وفي ذلك امتثال الأمة الإسلامية للحكم التشريعي في تبليغ الرسالة العالمية للبشرية جميعاً^(٢).

ولقد أظهرت خيريتها على سائر الأمم بأنها تحمل تكاليف الشريعة لتنطلق بها إلى العالم أجمع، فقال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: آية ١١٠].

وبين الله سبحانه وتعالى شهادتها على الأمم في قوله تعالى: ﴿وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [سورة الحج: آية ٧٨].

وإن العبادات التي كلفت بها الأمة الإسلامية من صلاة وزكاة وصيام وحج، كانت تقوم بها الأمم السالفة، كل أمة بالتشريع الذي

(١) تفسير ابن كثير، ج ٤، سورة الشورى، آية ١٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، ج ١٠، ص ٣٤٠.

obeikandi.com

وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُخْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ [سورة هود: آية ٣٥] فتبراً إجماعهم ولم يتبرأ من المجرم، تبرأ من المعصية ولم يتبرأ من العاصي، فهذا تعليم للأمة أن تقوم مقام نوح ﷺ بأنه اجتهد على قومه ليلاً ونهاراً يدعوهم إلى الله ﷻ وكذلك البراءة من المعصية لا البراءة من العاصي.

(٢) اشتراك الأمة الإسلامية مع نبيها بميزة البعث للبشرية جميعاً:

أ. قال تعالى: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [سورة الشورى: آية ١٣].

هذا خطاب للنبي محمد ﷺ عن وصية الله تعالى له وللأنبياء من قبله من الرسل الذين يحملون رسالة التوحيد الخالص لله تعالى، وبلغونها للناس، كل نبي إلى قومه خاصة، فكان الحكم الرباني قدراً مقدوراً في قطع إرسال الأنبياء وتكليف النبي محمد ﷺ في حمل أعباء الدعوة العالمية، وهذا الحكم الرباني حمل الاجتبابية والاصطفائية للأمة الإسلامية بالقيام على ما قام به نبيها لتبليغ الدين إلى العالم برمته. يقول أحد العلماء: «إن الله ما صلى صراحة في القرآن على أحد من الأنبياء إلا على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: آية ٥٦] والله جل وعلا صلى على أمته ﷺ في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: ٤٣] والسبب في صلاة الله تعالى على النبي ﷺ وعلى أمته أنه ﷺ اشترك مع أمته بميزة البعث والإخراج للبشرية جميعاً. انتهى كلامه (١).

ذكر الحافظ الواحدي: في كتابه أسباب النزول عن مجاهد،

(١) بيان الشيخ عمر بالمبوري، أحد علماء جماعة التبليغ، مركز الدعوة، الهند.

قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٥٦) قال أبو بكر رضي الله عنه: ما أعطاك الله من خير إلا وأشركتنا فيه فنزلت: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ وذكر الواحدي عن الأصمعي.

قال: سمعت المهدي يقول عن صلاة الله للنبي وأمه: أثره صلوات الله عليه بها من بين الرسل واختصكم بها من بين الأنام، فاقبلوا نعمة الله بالشكر^(١).

وعن ابن كثير في تفسيره في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ [سورة الأحزاب: آية ٤٣] قال: هذا تهيبج إلى الذكر بأنه سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم كقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [سورة البقرة: آية ١٥٢].

أخرج البخاري عن أبي العالية بأن صلاة الله تعالى ثناؤه على العبد عند الملائكة: وقال غيره: الصلاة من الله الرحمة، ولا منافاة بين القولين^(٢).

ذكر الحافظ الواحدي: عن سهل بن محمد بن سليمان يقول: هذا التشريف الذي شرف الله تعالى به نبينا صلوات الله عليه بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ أبلغ وأتم من تشريف آدم بأمر الملائكة بالسجود له، لأنه لا يجوز أن يكون الله مع الملائكة في ذلك التشريف، وقد أخبر الله تعالى عن نفسه بالصلاة على النبي، ثم الملائكة بالصلاة عليه، فتشريف صدر عنه أبلغ من تشريف تختص به الملائكة من غير جواز أن يكون الله معهم في ذلك^(٣).

(١) كتاب أسباب النزول لأبي الحسن الواحدي النيسابوري، ص ١٩٨، المطبعة العصرية، بيروت.

(٢) تفسير ابن كثير، سورة الأحزاب، ج ٣، آية ٧.

(٣) أسباب النزول للواحدي، سورة الأحزاب، آية ٥٦، ص ١٩٨.

وذكر ابن كثير في تفسيره عن صلاة الملائكة كما في الحديث الذي سبق: يقصد بها الدعاء للناس بالاستغفار كقوله تعالى عن الملائكة: ﴿الَّذِينَ يَمْجُلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْحَجِيمِ﴾ [سورة الأحزاب: آية ٧]^(١).

ب. لفظ البعث يدل في فحواه على «الشمولية».

ولما اشتركت الأمة الإسلامية مع نبيها ﷺ بصفة البعث يدل ذلك هذا اللفظ على العموم الذي يقصد به استنفار جميع طبقات الأمة لحمل مسؤولية الدعوة كل بحسبه، الذي بينه تعالى بقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ يُؤِثِّمُونَ الصَّالَةَ وَيُؤْثِرُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [سورة التوبة: آية ٧١].

فمن خلال النظر والتمعن في كتاب الله الكريم حول لفظ البعث فإنه يأتي أحياناً على سبيل الشمولية والعموم، فمثلاً لو نظرنا في قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [سورة المائدة: آية ٣١] يتضح لنا أن الله جل وعلا جاء بلفظ البعث بفعل الغراب في قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [سورة المائدة: آية ٣١] فلفظ البعث في الآية يدل في فحواه أن سنة الحفر للموتى جاءت من عصر ابني آدم إلى أيامنا هذه، والدليل على عمومية لفظ البعث في ابتعاث النبي ﷺ إلى الثقلين في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [سورة الجمعة: آية ٢] والنبي ﷺ يتكلم عن نفسه بشمولية الابتعاث في قوله: «ما بهذا

(١) تفسير ابن كثير، ج ٣، الأحزاب، آية ٧.

بعثت، إنما جئتكم من عند الله بما بعثني به فقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم»^(١) وقال ﷺ «إني لم أبعث باليهودية، والنصرانية ولكني بعثت بالحنيفية السمحة، والذي نفس محمد بيده لغدوة أو روحه في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها»^(٢) ويدلك خطاب النبي ﷺ واختياره للفظ البعث في غرس مسؤولية الدعوة العالمية وإثارتها في نفوس الصحابة في قوله ﷺ: «إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»^(٣).

وهم فهموا مراد الشارع الحكيم من تحمل أمانة البلاغ، فقاموا يتحركون بدعوتهم بلفظ البعث بقولهم: «إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد»^(٤).

وفي قوله ﷺ: «إن الله سيبعث لهذه الأمة كل مائة سنة من يجدد لها دينها»^(٥).

يدل هذا الحديث بأنه إذا كان تجديد في الأمة لا يأتي إلا على قيام بعث الأمة الإسلامية وتحريكها بالجهد على المقصد الذي أفردتها من أجله وهو إنقاذ البشرية من براثن الباطل، سواء بفرد أو أفراد أو جماعات، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة يوسف: آية ٢١].

(١) أخرجه ابن جرير، عن ابن عباس رضيهما، تفسير ابن كثير، ج ٣ ص ٦٢، والبداية، ج ٣ ص ٥٠.

(٢) رواه أحمد في مسنده والتبريزي في المشكاة ص ٩٩، باب كتاب الجهاد رقم ٣٨٤٩ / ٦٣.

(٣) أخرجه البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أخرجه أبو داود في السنن، ص ٣١.

(٤) قول للصحابي / ربعي بن عامر لرستم قائد الفرس في معركة القادسية، أورده ابن كثير في البداية ج ٧ ص ٣٨ والطبري ج ٤ ص ١٠٥.

(٥) رواه أبو داود في السنن (٣١) كتاب الملاحم (١) باب ما يذكر في قرن المائة رقم (٤٢٩١) وأخرجه الحاكم في المستدرک ٤ / ٥٢٢ كتاب الفتن والملاحم، والتبريزي في المشكاة ص ٨١ باب العلم رقم (٢٤٧ - ٥٠).

(٣) تكليف الأمة الإسلامية بالدعوة أخذاً من منهاج إبراهيم عليه السلام.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [سورة الشورى: آية ١٣] وهي دعوة التوحيد الخالص والاستسلام لله تعالى على كل حال، دعوة لازمها فراق الوطن والزوج والولد، دعوة تفضي بالداعي إلى الله ﷻ التأمل في الجهد الإبراهيمي الذي رافقه الانقياد التام على كل حال، لقد أمر إبراهيم عليه السلام بترك الزوجة والولد بواد غير ذي زرع، امرأة ضعيفة وزاد قليل وطفل رضيع وجبال محيطة موحشة ومخيفة.

ذكر الشيخ محمد بن العثيمين في كتابه القول المفيد: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة النحل: آية ١٢٠] قوله تعالى: ﴿أُمَّةً﴾ أي إماماً وهو ثناء من الله تعالى على إبراهيم بأنه إمام متبوع ثم إنه ﷺ قدوة في أعماله وأفعاله وجهاده، فإنه جاهد قومه وحصل منهم عليه ما حصل وألقي في النار فصبر ثم ابتلاه الله تعالى بالأمر بذبح ابنه وهو وحيد وقد بلغ معه السعي (أي شب وترعرع) فليس كبيراً قد طابت النفس منه، ولا صغيراً لم تتعلق النفس به كثيراً فصار على منتهى تعلق النفس به ثم وفق إلى ابن بار مطيع لله قال تعالى عنه: ﴿قَالَ يَبْنَئِي إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ قَالَ يَتَأَبَّعُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [سورة الصافات: آية ١٠٢].

لم يحث عن والده ويتمرد بل أراد من والده أن يوافق أمر ربه وامثلاً جميعاً وأسلماً وانقاداً له، وقوله «قانتاً» دوام الطاعة والاستمرار فيها على كل حال وقوله: «حنيفاً» أي مائلاً عن الشرك مجانباً لكل ما يخالف الطاعة فوصف بالنفي والإثبات أي بالوصفين الإيجابي والسلبي قوله: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تأكيداً أنه لم يك من المشركين طول حياته، والدليل على ذلك أن الله جعله إماماً ولا يجعل الله للناس إماماً من لم يحقق التوحيد أبداً، إذ أنه في غاية من الصبر

ومراتب اليقين، وكيف يصبر على هذه الأمور العظيمة إلا من كمل توحيده وأيقن بالثواب. انتهى كلامه^(١).

وما تلك التضحيات الإبراهيمية إلا نبزاً للأمة الإسلامية في إرساء قواعد التوحيد الخالص على ذات الله ﷻ.

ذكر أبو الفضل أحمد ابن عطاء: في قوله تعالى: ﴿وَابْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ ﴿٧٧﴾ [سورة النجم: آية ٣٧] جعل جسده للنيران، وطعامه للضيفان وولده للقربان، وقلبه للرحمن. انتهى كلامه^(٢).

إن الملة الإبراهيمية هي ملة التضحيات الكبرى والفوائد العظمى، وموعظة للمتقين لمن نصب نفسه في طريق الدعوة أن لا يصدده ولد ولا زوجة ولا وطن ولا مال عن دعوة الناس إلى الله ﷻ، قال تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة القصص: آية ٨٧] فأى شيء يصدك عن الدعوة إلى الله وآياته واستمكنت محبته في قلبك من دون الله فقد وقعت في الشرك، والملة الإبراهيمية هي ملة تقود الداعي إلى التوحيد الخالص وتقديم حب الله على ما سواه، ولقد زكى الله تعالى الملة الإبراهيمية بقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ ﴿١٢٥﴾ [سورة النساء: آية ١٢٥].

وأمر الله نبيه أن يأخذ بالمنهاج الإبراهيمي بقوله: ﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [سورة النحل: آية ١٢٣] وأمر أمته كذلك أن تأخذ بالمنهاج الإبراهيمي بقوله: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَعَكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [سورة الحج: آية ٧٨] وحذر الله من ترك الملة الإبراهيمية بقوله:

(١) كتاب القول المفيد لمحمد بن العثيمين، ص ٨٠ (بتصرف).

(٢) التنوير في إسقاط التدبير، أبو الفضل أحمد ابن عطاء الله، ص ١٠٥.

﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [سورة البقرة: آية ١٣٠].

(٤) تكليف الأمة الإسلامية بالدعوة أخذاً من منهاج موسى ﷺ

لقد أخذت قصة موسى ﷺ وقومه الحظ الأوفر في كتاب الله الكريم، فجاء بشرح مفصل عن منهاج موسى في الدعوة إلى الله لبني إسرائيل، وما وقع بهم من العذاب والهلاك، إذ أنه لا توجد أمة كبني إسرائيل أظهرت لها المعجزات عياناً وهم ينكرون ويلحدون استكباراً وعلواً في الأرض وفساداً، ولقد ضربت منهاجية موسى المثل الأعلى في الدعوة إلى الله، وذلك في إرساء قواعد الصبر للدعاة المخلصين وبيان لهذه الأمة في تحقيق الخلافة في الأرض، حينما انطلقت تلك الكوكبة من بني إسرائيل في طريق التضحيات مع موسى ﷺ للدعوة وإرجاع كرامة بني إسرائيل، إذ هم من سلالة الأنبياء، حيث سلب الله عليهم فرعون وجنوده يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم، ولما تحركت كتيبة الدعوة إلى الله ﷻ من بني إسرائيل اجتمع فرعون وجنوده ليسوموا موسى وقومه أشد العذاب: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُمُ الْهَتَكُ قَالَ سَنَقْبَلُ أَبْنَاءَهُمْ وَسَتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [سورة الأعراف: آية ١٢٧].

وازداد العذاب والبلاء على تلك الكتيبة المؤمنة فجاءوا يهرعون إلى موسى يشكون ما حل بهم من البلاء والفتنة: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة الأعراف: آية ١٢٨] فشكوا حالتهم قبل الدعوة وبعدها ازداد البلاء ولكن موسى ﷺ يعلم أن ذلك هو التمحيص لاستخراج الفئة التي تكون أهلاً لنصرة الله وتأييده، وتحقيق الخلافة في الأرض ولا تكون تلك الفئة المنصورة إلا بثلاث: الاستعانة بالله والصبر والتقوى:

﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيُسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾
[سورة الأعراف: آية ١٢٩].

فأوحى الله إلى موسى وأخيه هارون أن يتبوا لبني إسرائيل من بيوتهم قبله ودعاء وقيموا الصلاة فيها، بقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة يونس: آية ٨٧] ذكر ابن كثير عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي أمروا أن يتخذوها مساجد، فهو ما أوصاهم بزوال البلاء والفتنة عن طريق القوة المادية أو قوة السلاح أو قوة العتاد والعدة، بل أوصاهم بحقيقة نزول النصر الغيبية عن طريق الأعمال الشرعية التي أمرهم الله بها، فامثلوا لما أمروا به وصبروا واحتسبوا، فلما رأى موسى امثالهم لتلك الأوامر الشرعية وعرف أنهم أهلاً لنصر الله وتأيده رفع يديه بالدعاء وأمن من ورائه هارون:

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [سورة يونس: آية ٨٨] فأمرهم الله أولاً بالاستقامة على الأعمال الشرعية وبتحققها فيهم تحققت الإجابة بقوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتِ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة يونس: آية ٨٩].

قال ابن جريج عن ابن عباس فاستقيموا لأمرى: ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١) أي لا تستمعوا لقول من لا يعلم عن تلك المنهاجية التي تعلمونها أنتم، وتلك الأوامر الشرعية التي كلفتم بها،

(١) تفسير ابن كثير، ج ٢، سورة يونس آية ٨٩.

ويقول ابن جريج: مكث فرعون بعد هذه الدعوة أربعين سنة حتى أهلكه الله تعالى.

وقال محمد بن كعب وعلي بن الحسين أنه مكث أربعين يوماً^(١)، ونزلت نصرة الله الغيبية موافقة للأوامر الشرعية لتلك الكوكبة من المؤمنين المستضعفين في الأرض بما صبروا على البلاء وصبروا على الأوامر الشرعية حتى أورثوا الأرض بقوله تعالى: ﴿وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [سورة القصص: آية ٥].

ودمر الله القوة المادية الطاغية وهي قوة الملك والسلطة وقوة المال والأسباب الظاهرية بقوة الأحكام والأوامر الشرعية الغيبية الربانية في قوله تعالى: ﴿فَأَنقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [٢٣] وَأَوْزَيْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرُوكَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَنَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿[سورة الأعراف: آية ١٣٦ - ١٣٧] فهذا نبراس للأمة الإسلامية في دمج الباطل وإحقاق الحق والخلافة في الأرض ولا يأتي ذلك إلا عن طريق، تكوين الفئة التي تدعو إلى الله، والتي تتحرك في المشرق والمغرب والشمال والجنوب لتكوين قاعدة الخلافة في الأرض، والتي تكون أهلاً لنصرة الله وتأييده، ثم الصبر على الدعوة وما يعترئها من تمحيص وابتلاء فإن الصبر هو عمود الدعوة وما ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا وذكر الصبر بعدهما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [سورة السجدة: آية ٢٤].

(١) المرجع السابق.

وقال تعالى: ﴿يَبْنِيْ أَقْمِرَ الصُّكُوَّةَ وَأْمُرَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ۝٧﴾ [سورة لقمان: آية ١٧].

وقال تعالى في الاصطفاء للدعوة: ﴿وَمَا يُقْلَهُ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُقْلَهُ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٣٥﴾ [سورة فصلت: آية ٣٥].

وقال تعالى عن القائمين بالدعوة: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [سورة العصر: آية ٣] وقال تعالى ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧﴾ [سورة المدثر: آية ٧] اصبر على متاعب الدعوة، واصبر على فراق ولدك وزوجك ووطنك، تكن بالحق مبلغاً وبالأفاق مؤثراً.

(٥) تكليف الأمة بالدعوة أخذاً من منهاج عيسى عليه السلام.

وأما منهاج عيسى عليه السلام في الدعوة إلى الله فإنها تميزت بالترحال من مكان إلى مكان سياحة في الأرض وتنقلاً من واد، إلى واد ومن سهل إلى سهل، دعوة لخالق الكون، دعوة يدعو فيها الداعي إلى الله بآلائه ونعمائه ونقمائه وهيمنته، دعوة يبحث فيها المتأمل في الأجرام الكونية عن دقائق الأسرار، وعن عجب قدرة الله تعالى والكون المحيط الذي أبدعه بإرادته جبار السموات والأرض الذي له المنة والفضل في كل نعمة أنعمها على خلقه، وله الحق في توحيدده وله الحق في الدعوة إليه وقطع المسافات وبلوغ الآفاق لمعرفة ومعرفة في الأرض من أجله، هذه السياحة التي أخبر عنها محمد ﷺ: «سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله»^(١) دعوة عالمية وجهد متصل بالليل والنهار دعوة نوح عليه السلام، بعث للبشرية جميعاً دعوة محمد عليه الصلاة والسلام، وفراق للمحوبات والشهوات دعوة إبراهيم عليه السلام، وصبر وجلد وتحمل دعوة موسى عليه السلام، وسياحة في الأرض، دعوة عيسى عليه السلام.

(١) الحديث رواه أبو داود بإسناد جيد.

قال ابن القيم رحمه الله: «أين أنت من طريق تعب فيه آدم، ونوح فيه نوح، ورمي في النار الخليل، وأضطجع للذبح إسماعيل، وذبح السيد الحصور يحيى، ونشر بالمنشار زكريا، وبيع يوسف بثمن بخس، وزاد على المقدار بكاء داود، وسار مع الوحش عيسى، وتحمل أنواع البلبايا محمد عليه الصلاة والسلام»^(١).

(٦) مفهوم قيام الأمة على الصراط المستقيم

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [سورة الأنعام: آية ١٥٣].

ذكر الشيخ محمد بن صالح العثيمين في كتابه «القول المفيد» حول الآية السابقة قال الشيخ: ففي قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي﴾ يحتمل أن المشار إليه ما سبق من الآية في وصية الله للبشر، لأنك لو تأملت وجدته محيطاً بالشرع كله، إما نصاً أو إيماء، ويحتمل أن المراد به ما علم من دين الله، أي هذا الذي جاءكم به الرسول هو صراطي، أي الطريق الموصل إليه سبحانه وتعالى، والصراط يضاف إلى الله تعالى ويضاف إلى سالكه، ففي قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة الفاتحة: آية ٧].

هنا أضيف إلى سالكه وفي قوله تعالى: ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سورة الشورى: آية ٥٣] هنا أضيف إلى الله جل وعز، وإضافته إلى الله ﷻ لأنه موصل إليه ولأنه هو الذي وضعه، وإضافته إلى سالكه لأنهم هم الذين سلكوه وقوله ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ هذه حال من صراط أي حال كونه مستقيماً لا اعوجاج فيه فاتبعوه وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ السبل، أي الطرق الملتوية

(١) كتاب الفوائد، باب هكذا فلتكن الرجال، ص ٦٧.

الخارجة، عنه وتفرق: فعل مضارع منصوب بأن بعد فاء السببية، لكن حذفت منه تاء المضارعة، وأصلها (تتفرق) أي أنكم إذا اتبعتم السبل تفرقت بكم عن سبيله وتشتت بكم الأهواء وبعدت.

وقوله كذلك «السبل» جمع سبيل، وفي الطريق التي أضافها الله إلى نفسه قال: «سبيله» سبيل واحد لأن سبيل الله ﷻ واحداً وأما ما عداه فسبل متعددة، ولهذه قال النبي ﷺ: «وستتفرق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة» انتهى كلامه^(١).
قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [سورة المائدة: آية ٣].

لقد كمل الدين وتمت نعمت الله على الأمة وظهرت الشريعة بيضاء نقية لا يزيغ عنها إلا هالك، وشرح القرآن الكريم وصية الله الخالدة والسبيل الموصل إليه، إذ هو صراط مستقيم لا اعوجاج فيه، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [سورة الأنعام: آية ١٥٣].

وهو الدين الإسلامي بكماله وتمامه وفي قوله تعالى: ﴿وَلِئَلَّا تَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [سورة المؤمنون: آية ٧٣].

لقد أمر الله نبيه ﷺ أن يدعو أمته إلى سبيل واحد يكون فيه هدايتهم واستقامتهم وهو قيام الأمة على طريق الدعوة إلى الله تعالى، فقال تعالى لنبيه: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [سورة يوسف: آية ١٠٨] ذلك السبيل الذي يجمع شتات الأمة على مقصد واحد وهو إقامة الدين في البشرية جميعاً، قال تعالى: ﴿أَن أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾

(١) مسند الإمام أحمد (٣٣٢/٢) وسنن أبي داود (٤٥٩٦) والترمذي (٢٦٤٠) وابن ماجه (٣٩٩١) والحاكم وصححه (١٢٨/١).

[سورة الشورى: آية ١٣] فمبتغى ومطلب كل موحد من هذه الأمة أن يكون على الصراط المستقيم وذلك في قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [سورة الفاتحة: آية ٦، ٧] وهم القوم الذين اختارهم الله تعالى دعوة وعبادة إليه، وإذا أمعنا النظر في الآيات القرآنية التي تتكلم عن الدعوة إلى الله تعالى نجد أنه قد تلتها آيات الاستقامة.

والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝﴾ [سورة يونس: آية ٢٥].

﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ [سورة الحج: آية ٦٧].

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ [سورة فصلت: آية ٣٠].

﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [سورة الشورى: آية ١٥].

ذكر ابن القيم رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [سورة الأنعام: آية ١٥٣] فوحده سبيله لأنه في نفسه واحد لا تعدد فيه، وجمع السبل المخالفة لأنها كثيرة متعددة كما ثبت أن النبي ﷺ خط خطاً ثم قال: «هذا سبيل الله» ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن يساره ثم قال: «هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه».

ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [سورة الأنعام: آية ١٥٣] ^(١).

(١) أخرجه أحمد (١/٤٦٥، ٤٥٣) والطيالسي (٢٤٤) والنسائي في الكبرى (٦/٣٤٣/١١١٧٤) والدارمي (١/٧٨/٢٠٢) وابن حبان (١/١٨١/٧) والحاكم (٢/٢٣٩/٢١٨) وحسنه الألباني في المشكاة (١/٥٩/١٦٦).

ومن هذا قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٧] فوحد النور الذي هو سبيله وجمع الظلمات التي هي سبل الشيطان، ومن فهم هذا فهم السر في أفراد النور وجمع الظلمات في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [سورة الأنعام: آية ١] مع أن فيه سرّاً أطف من هذا يعرفه من يعرف منبع النور ومن أين أفاض وعن ماذا حصل وأن أصله كله واحد. انتهى كلامه^(١).

(١) طريق الهجرتين وباب السعادين، لابن القيم الجوزية، ص ٢١٠.

خلاصة البحث

عن قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [سورة الأنعام: آية ١٥٣] هو دين الله الكامل لكل ما شرع الله ﷻ من الأحكام عن طريق نبيه ورسوله محمد ﷺ، ولكي لا تتفرق بالأمة الإسلامية السبل أمرها تعالى بسبيل واحد يكون فيه عزها وخيريتها واستقامتها فقال تعالى: ﴿أَنَّ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [سورة الشورى: آية ١٣].

ثالثاً: حصول الفرقة في الأمة بترك منهاجية أولي العزم من الرسل أخذاً من سورة الشورى:

أ. قال تعالى: ﴿أَنَّ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [سورة الشورى: آية ١٣].

لقد انتظمت الآية الكريمة عند قراءتها كاملة ذكر الأسماء الأربعة لأولي العزم من الرسل، كما شرحت منهاجية الشريعة التي بينها الله جل وعلا للأمم وشرعها للأمة الإسلامية خاصة، لإقامتها في البشرية جميعاً في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [سورة الشورى: آية ١٣] ذلك المنهاج الشامل الكامل الذي لا ينحرف نظامه ولا يلتوي عن مقصده، فبأي خلل في منهاجية التي رسمها الله للأمة يدب الخلاف

فيها ويحل الهوان عليها، فأمر الله تعالى الأمة الإسلامية بإقامة الدين على منهاج أولي العزم من الرسل الذي بينه سبحانه بقوله: «ولا تتفرقوا فيه».

أي في عدم إقامتكم على تلك المنهاجية وذلك التشريع الرباني الذي هو بمثابة الماء للزرع، وبمثابة الروح من الجسد، فبأي نقص أو أي خلل في ذلك النظام الكامل الشامل تضحل أعمال الشريعة من حياة المسلمين يوماً بعد يوم، وتكون كالزرع الذي تذروه الرياح، أو كالجسد الذي خرجت منه الروح عبادات صورية خرجت عن مضمونها وانحرفت عن مقصدها للوصول إلى تقوى الله ﷻ.

وبترك الأمة الإسلامية لتلك المنهاجية الربانية يكون النقص في أعمال الشريعة على الآتي:

- ١ - دخول البدع والشركيات في الأمة.
 - ٢ - النقص في السنن والفرائض.
 - ٣ - ارتكاب الكبائر والصغائر من المعاصي.
 - ٤ - اشتداد غضب الله ونزول العذاب على الأمة الإسلامية.
 - ٥ - التمزق والتفرق في البلاد وإحكام أهل الباطل قبضتهم على الأمة.
- وسبب الذل الذي حل بالأمة الإسلامية والتمزق والتفرق في البلاد وإحكام أهل الباطل قبضتهم عليها، هو أنها تخلت عن طريق الخيرية الذي شرفها الله به وأظهرها على سائر الأمم، وهو إقامة الدين في البشرية جميعاً، فأصبحت تمشي في التيه الذي هو أشبه بتيه بني إسرائيل، فمن رحمة الله ﷻ بهذه الأمة أن سهل لها طريق الاعتصام الذي يربط الأمة بعضها ببعض بقيام جميع طبقات الأمة بأخذ مسؤولية الدعوة التي تجمع فكر الأمة المتشتت على فكر واحد

وهو إقامة الدين في البشرية جميعاً الذي بينه تعالى بقوله: ﴿أَنۡ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [سورة الشورى: آية ١٣] فإذا كانت الطرق مختلفة والآراء متشعبة فكيف يكون الاعتصام؟ وجواب ذلك من سورة آل عمران التي بينت الآيات فيها أن الأمة كانت على شفا حفرة من النار وفي تمزق وشتات، فقال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [سورة آل عمران: آية ١٠٣].

﴿وَلَتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿١١٤﴾ [سورة آل عمران: آية ١٠٤].

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنۢ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١١٥﴾ [سورة آل عمران: آية ١٠٥].

فوضحت تلك الآيات البينات أن الأمة كانت على شفا حفرة من النار فأنقذها الله برسوله، إذ اجتهد على إخراجهم من الظلمات إلى النور، ومن الفرقة إلى الاجتماع ورفع راية الدعوة في البشرية جميعاً، وفي نهاية حياته خوفاً عليهم من الفرقة والاختلاف جمعهم في صعيد واحد الرجال والنساء وخطب فيهم من الصباح حتى المساء وأخبرهم عما كان وسيكون على هذه الأمة وكيف المخرج من الفتن.

«عن زيد بن عمرو بن أخطب رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ الفجر وصعد المنبر حتى حضرت الظهر فنزل فصلى، ثم صعد المنبر حتى العصر، ثم نزل فصلى حتى غربت الشمس، فأخبرنا ما كان وما هو كائن فأعلمنا أحفظنا»^(١).

(١) رواه مسلم (٢٨٩٢).

ويدل على ذلك حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصانا قال: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة»^(١).

وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا وإنني تارك فيكم ثقلين أحدهما كتاب الله وهو حبل الله من اتبعه كان على هدى ومن تركه كان على ضلالة»^(٢) ذلك الحبل المتين هو كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام والدعوة لإقامتهما في الإنسانية جميعاً وهو الذي بينه تعالى من كتابه الكريم في قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [سورة آل عمران: آية ١٠٣] إلى قوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [سورة آل عمران: آية ١٠٤] والذي بينه ﷺ في حجة الوداع من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بلغوا عني ولو آية»^(٣) في رواية عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: «فليبلغ الشاهد الغائب، ويلكم أو ويحكم أنظروا ولا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»^(٤).

ولقد أخذ الصحابة رضي الله عنهم بوصية الاعتصام وهي (قيام جميع طبقات الأمة على خلافة الدعوة إلى الله بعد رسول الله ﷺ) والتي

(١) أخرجه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه.

(٤) متفق على صحته.

أوصاهم الله تعالى بها، وأوصاهم رسول الله ﷺ في حجة الوداع، وهي إقامتهم على فكر واحد لتبليغ الدين إلى العالم برمته، فخرجت جحافل الصحابة رضي الله عنهم ممثلة للأمر الرباني والهدي النبوي بعد وفاة النبي ﷺ، حيث ساحوا في الأرض ليلبغوا دين الله ﷻ، فلم يلتفتوا إلى دنياهم ولا إلى شهواتهم مما كلفهم حب الله ورسوله ودينه ترميل النساء وتيتيم الأبناء رضي الله عنهم أجمعين، ولما تركت الأمة المنهاجية التي شرّعها الله ﷻ وهي الدعوة إلى الله تعالى تفرقت وأصبحت دويلات ضعيفة هانت عند الله وهانت في دنيا الناس تفترسها الأمم كما يفترس الذئب الغنم، فلا حول ولا قوة إلا بالله، والدليل على ذلك من السنة المطهرة ما بينه معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الكتاب افترقوا في دينهم على اثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة، كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة، وإنه سيخرج في أمتي أقوام تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله والله يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم لغيركم من الناس أخرى أن لا يقوم به»^(١).

ولبيان سبب نزول العذاب على الأمة في عدم قيامها على منهاجية الاعتصام وهي (قيام جميع طبقات الأمة على خلافة الدعوة بعد الرسول ﷺ) قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ثم لتدعونه فلا يستجيب لكم»^(٢).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول ما دخل

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه أحمد والترمذي عن حذيفة، وقال الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٠٧٠) حسن.

النقص في بني إسرائيل، أنه كان الرجل يلقي الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض» فقرأ ﷺ ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [سورة المائدة، الآيتان: ٧٨، ٧٩] ثم قال ﷺ مخاطباً الأمة (والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب): «كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا ولتقصرنه على الحق قصرا أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض ثم يلعنكم كما لعن بني إسرائيل»^(١).

ذكر الحافظ المناوي في الاتحافات السنية: «إن الله ﷻ أمرنا أن نأمر بالمعروف وأن ننهي عن المنكر لثلاثي يوم فتفشو فيه المعاصي وتتسلط علينا الآفات والبلايا والمصائب بترك ذلك فندعو الله سبحانه فلا يجيب لنا دعاء ونسأله كشف ذلك فلا نعطي ونستنصر بالله من عدونا وما حل بنا فلا ينصرنا ولا يلتفت إلينا»^(٢).

تسليط الظلمة على أمة الإسلام بترك الدعوة إلى الله

لقد استشرى الظلم بين العباد فسلط القوي على الضعيف، والحاكم على المحكوم، والكافر على المسلم، وانتشر الفجور سواء كان ذلك بين الأفراد أو بين الجماعات أو بين الشعوب، يقول شيخ الاسلام ابن تيمية: «إن الله لينصر الدولة الكافرة العادلة على الدولة المسلمة الظالمة " ويحل غضب الله على كل بلد انتشرت فيه

(١) رواه الترمذي وأبو داود بإسناد حسن (ت٤٣٣٦، ت٣٠٥٠).

(٢) الاتحافات السنية في الأحاديث القدسية، لزين الدين المناوي، ص١٦٤.

المعصية ولا يؤمر فيه بالمعروف ولا ينهى فيه عن المنكر، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [سورة هود: آية ١٠٢].

وعن أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها قالت، قال رسول الله ﷺ: «ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج وحلق بإصبعيه الإبهام والسبابة، فقالت زينب رضي الله عنها: أنهلك وفينا الصالحون، قال نعم إذا كثر الخبث»^(١) فهي رضي الله عنها لم تقل أنهلك وفينا المصلحون ولكن قالت أنهلك وفينا الصالحون، لأن المعصية إذا ظهرت في أمة من الأمم ولم تغير تكون سبباً لغضب الله وعقابه ولو كان فيها أناس صالحون يعمهم ذلك العذاب لأنها ما تمعرت وجوههم إنكاراً لتلك المعصية واكتفوا بالصلاح لأنفسهم والدليل على ذلك في قوله ﷻ:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [سورة هود: آية ١١٧].

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعَظَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [سورة الأنعام: آية ١٢٩] قال الرازي رحمه الله: إن الرعية متى كانوا ظالمين فإن الله يسلط عليهم ظالماً مثلهم فإن أرادوا أن يتخلصوا من ذلك الأمير الظالم فليتركوا الظلم الذي يفعلوه فإن تاب الظالمون عن ظلمهم وأخذ المصلحون على أيديهم فمنعواهم عن الظلم تاب الله عليهم وهدى ولانهم وأمرأهم وجعلهم عليهم رحمة بعد أن كانوا عليهم نقمة أو يبدلهم منهم غيرهم من عباد المصلحين الصالحين^(٢).

(١) متفق عليه.

(٢) سماحة الإسلام لصديق عرجون، ص ٧٣٧.

ولقد جرت سنة الله في القدم أن الذي يتخلى عن الدعوة إلى الله يستبدل الله من هو خير منه ويتخلى عنه قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [سورة محمد: آية ٣٨].

قال الصحابة من هؤلاء إن تولينا استبدلوا بنا ثم لا يكونوا أمثالنا؟ فضرب النبي ﷺ على كتف سلمان الفارسي رضي الله عنه ثم قال ﷺ: «هذا وقومه، ولو كان الدين عند الثريا لتناوله رجال من الفرس»^(١) وفي قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة الجمعة: آية ٣]. قال الصحابة من هم يا رسول الله فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثاً وفيما سلمان الفارسي رضي الله عنه فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال أو رجل من هؤلاء»^(٢).

(ب) لفظ الاجتباء يربط الأمة الإسلامية بالأنبياء بجهد الدعوة إلى الله

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [سورة الشورى: آية ١٣].

قلت: لقد أصبحت الدعوة إلى الله أمراً ماضياً في الأرض حتى يرث الله الأرض ومن عليها، تقوم بها جماعة الإيمان وأمة الإسلام تتلقى الأمر الماضي والنداء الرباني لتقود البشرية وتستأنف المسيرة هدف عظيم لأمة عظيمة في دعوة عظيمة وحين تمضي الدعوة إلى الله على هذا السبيل وبهذا التلقي فإنها تمضي على عين الله وفي عنايته ورحمته، فله الأمر وله الحكم وإليه المصير فلا يحدد مستقبل الدعوة جهد المؤمنين وحدهم، ولكنهم يبذلون الطاعة ويقومون بالتكاليف

(١) أخرجه مسلم وتفسير ابن كثير، سورة محمد.

(٢) رواه مسلم والترمذي والنسائي وتفسير ابن كثير، سورة الجمعة.

والدعوة في مضيتها هذا تكتسب التجربة والخبرة لتنقلها إلى جيل جديد
فتمتد الدعوة نمواً وقوة وشدة وصلابة وبقينا وثباتاً مادامت قائمة على
المنهاج الرباني الذي بينه تعالى بقوله:

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا
وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [سورة
الشورى: آية ١٣] أي منهاج أولي العزم من الرسل الذي اجتبى الله له
صفوة خلقه من البشر وهم الذين قال فيهم سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ
أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ
رَفِيقًا﴾ [سورة النساء: آية ٦٩] واصطفاهم لحمل رسالة البلاغ بقوله:
﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ
يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [سورة الشورى: آية ١٣].

معنى الاجتباء في هذا الموضع من الآية: هو الاصطفاء
والاختيار من الخليقة لحمل رسالة البلاغ للبشرية.

وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ
مَنْ يُنِيبُ﴾ [سورة الشورى: آية ١٣] يقول ابن كثير في تفسيره: «هو الذي
يقدر الهداية لمن يستحقها ويكتب الضلالة على أثرها على طريق
الرشد» انتهى كلامه^(١).

والنظر في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ فإنه تبارك
وتعالى يخاطب الأمة الإسلامية بلفظ الاجتباء الذي يخاطب به الأنبياء
ذلك لأنها اشتركت مع الأنبياء بمسؤولية الدعوة إلى الله ﷻ فقال سبحانه
وتعالى لإبراهيم عليه السلام:

(١) تفسير ابن كثير، ج ٣، سورة الشورى آية ١٣.

﴿أَجَبْنَاهُ وَهَدَّاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [سورة النحل: آية ١٢١] وقال عن يوسف عليه السلام ﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ﴾ [سورة يوسف: آية ٦].

وخاطب الأمة الإسلامية بقوله: ﴿هُوَ أَجَبَنَكُمُ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [سورة الحج: آية ٧٨] وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الشورى: آية ١٤].

ذكر البيضاوي في تفسيره لهذه الآية إنما كان مخالفتهم للحق بعد بلوغه إليهم وقيام الحجة عليهم وما حملهم على ذلك من العناد والمشقة. انتهى كلامه^(١).

فهذا تحذير للأمة الإسلامية من أن تقوم مقام الأمم السابقة بجحود العلم وإنكاره، وها نحن نرى أحوال المسلمين لما تركوا تلك المنهاجية الربانية وانقسموا في تحصيل العلم الشرعي إلى فريقين:

الأول: ركز على تحصيل العلم وتبوتق حول نفسه واكتفى بذلك.

الثاني: جاهل بأمر دينه عكف على دنياه ونسي الله والدار الآخرة وقليل من يدعو بما علم، وفي قوله: ﴿فَلِذَلِكَ فَادَّعُ وَأَسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [سورة الشورى: آية ١٥].

ذكر ابن كثير في تفسيره: أي استقم أنت ومن تبعك على عبادة الله تعالى كما أمرك الله بالذي أوحينا إليك وما وصينا به جميع المرسلين قبلك أصحاب الشرائع الكبار المتبعة كأولي العزم من الرسل. انتهى كلامه^(٢).

(١) تفسير البيضاوي، ج ٣ - ٥، سورة الشورى آية ١٤.

(٢) تفسير ابن كثير، ج ٣، سورة الشورى آية ١٥.

بعض الصفات التي يكتسبها الداعي لقيامه بالدعوة إلى الله ﷻ :

- ١ - استعلاء بالمقصد السامي الذي يتحرك من أجله بأنه يدعو إلى الله.
- ٢ - يتحصل الداعي على قوة اليقين والتوكل وتزكية النفس بقدر تضحيته للدعوة إلى الله.
- ٣ - الشفقة والرحمة على الخلق لما يرى من ارتكابهم للمعاصي وتفلتهم عن طاعة الله ﷻ.
- ٤ - بقدر مخالطته للبيئة التي يتحرك فيها يكتسب الخبرة الواسعة في التعامل مع الخلق لإيصالهم إلى طاعة الله ﷻ، فالبادية تختلف عن حياة الحضر، والمُزارع يختلف عن صياد البحر، فإذا أبحر الداعي في بحر الإنسانية اكتسب إحاطة بعلوم وأسرار الدعوة فيقرب الخلق إلى الله بالشيء الذي تشربته قلوبهم شوقاً إليه.
- ٥ - بقدر مخالطته للناس يكتسب علاقات أخوية معهم.
- ٦ - الصبر والتحمل على متاعب الدعوة وعلى فراق الأهل والوطن.
- ٧ - إظهار حب الإسلام على جميع المحبوبات وذلك بهجرتها والسفر إلى أقطار أخرى للدعوة إلى الله.
- ٨ - التجديد في الحياة الزوجية والخروج من متاعب الحياة، وذلك بعد رجوعه من السفر الطويل إلى وطنه وأهله.

تأصيل حركة الداعي وفقاً للضوابط الشرعية:

- ١ - إن حركة الداعي لها ضوابطها الشرعية، وذلك لقيامه بالدعوة إلى الله جلباً للمصلحة ودرءاً للمفسدة، فأى عمل يقوم به الداعي إلى الله يعتبر تأصيلاً للأحكام الشرعية، فإما أن يؤثر سلباً أو إيجاباً في تأصيل تلك الأحكام بين الناس، وله خطورته على الدعوة إلى الله فعليه أن يبحث في الأدلة من

الكتاب والسنة وبفهم سلف الأمة عن تلك الضوابط الشرعية حتى يزن حركته في الدعوة إلى الله بميزان الشريعة، لا بميزان الهوى والنفس.

٢ - الأدلة على تلك الضوابط الشرعية في تقيد حركة الداعي بميزان الشريعة. ذكر ابن كثير في تفسيره عن الضحاك في قوله تعالى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝﴾ [سورة المدثر: آية ٥] أي اترك المعصية^(١).

عن ثعلبه الخشني رحمته الله أنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله في قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَصُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ ۝﴾ [سورة المائدة: آية ١٠٥] قال عليه السلام: «اتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر فإذا رأيتم شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليكم بخاصة نفسك ودع عنك العوام، فإن من ورائك أياماً، الصبر فيهن مثل قبض على الجمر للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله»^(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من التمس رضى الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضى الناس بسخط الله سخط عليه وأسخط عليه الناس»^(٣).

وقال أبو شامة عن مبارك عن الحسن البصري رحمه الله: «السنة والذي لا إله إلا هو بين الغالي والجافي، فاصبروا رحمكم الله فإن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى وهم أقل الناس فيما بقي، الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم، ولا مع أهل البدع في بدعهم، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم فكذلك إن شاء الله فكونوا»^(٤).

(١) تفسير ابن كثير، ج ٤ سورة المدثر آية ٥.

(٢) أخرجه الترمذي وأبو داود وابن ماجه في كتاب الفتن.

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه.

(٤) من كتاب الزهد والرقائق، أحمد فريد، ص ١٩٥.

قال ابن القيم، إنكار المنكر أربع درجات:

- ١ - أن يزول ويخلفه ضده.
- ٢ - أن يقل وإن لم يزل من جملته.
- ٣ - أن يخلفه ما هو مثله أو أن يخلفه ما هو شر منه.
- ٤ - فإذا رأيت أهل الفجور والفسوق يلعبون بالشطرنج كان إنكارك عليهم من عدم الفقه والبصيرة إلا إذا نقلتهم منه إلى ما هو أحب لله ورسوله كرمي النشاب وسبق الخيل، وإذا رأيت الفساق قد اجتمعوا على لهو ولعب أو سماع مكاء وتصدية فإن نقلتهم عنه إلى طاعة الله فهو المراد وإلا كان تركهم على ذلك من أن تفرغهم لما هو أعظم من ذلك فكان ما هم فيه شاغلاً لهم عن ذلك وكما إذا كان الرجل مشغلاً بكتب المجون ونحوها خفت من نقله عنها انتقاله إلى كتب البدع والضلال والسحرة فدعه وكتب المجون. انتهى كلامه^(١).

(٥) نصائح للقائم بالتبليغ والنصح للمسلمين

- ١ - أن يكون متمسكاً بالكتاب والسنة وذلك بأن يكون الداعية ذا عقيدة إسلامية صحيحة خالية من أي بدعة أو شبهة.
- ٢ - صحة العبادة وهذا أصل هام أيضاً في الداعية إلى الله تعالى، وكونه قدوة حسنة تنظر الناس إليه فتوقره وتحترمه وتقلده في عبادته.
- ٣ - أن يتعلم من خلال البيئة الدعوية التي ينطلق منها بدعوته علم التوحيد الذي هو الأصل الأصيل والأساس الذي تبنى عليه صحة

(١) من كتاب الكواشف الجلية لسلمان، ص ٧٥٥.

الأعمال وأعني بذلك التركيز أولاً على تعليم أركان الإيمان ومنها إلى أقسام التوحيد.

٤ - الإخلاص وموافقة الأقوال للأعمال والسيرة للسيرة فلا انفصام ولا اضطراب في حياة الداعية، بل انسجام وتكامل والحقيقة أن هذا الأمر هام جداً في المسلم عامة وفي حياة الداعية خاصة بأن يحرص عليه ويتنبه إليه ويراعيه، قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [سورة الصف: آية ٢ - ٣].

٥ - الخلق الحسن والمعشر الطيب والسيرة الحميدة ومعاملة الناس بما تحب أن يعاملوك به من الأمانة واحترام العهود والتخلق بأخلاق الإسلام العالية.

٦ - إذا كان الداعي من أهل الأسباب الدنيوية كمزاولة مهنة أو حرفة معينة وجب عليه طلب العلم الشرعي المتعلق بهذه الحرفة أو تلك المهنة.

٧ - التورع عن مواطن الشبهات في الأموال وترك مواطن الريب في جميع الظروف.

٨ - التجافي عن دار الغرور، والتطلع إلى دار البقاء والحبور، وذلك بالتقلل من الدنيا، وعدم اللهث الشديد وراء حطامها، والتزود منها ب زاد التقوى.

٩ - عدم حضور مجالس الأغنياء وأهل المراتب الدنيوية إلا للضرورة كتقديم نصيحة أو زيارتهم إذا كانوا أتقياء صالحين وغيرها فيما يحقق النفع للإسلام والمسلمين.